ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة التواصلية
ISSN 2437-0894- EISSN 6202-X537
HTTPS://WWW.ASJP.CERIST.DZ/EN/PRESENTATIONREVUE/294
المجلد:12العدد: 02 (2026) ص 92/80

تمثّلات مدينة سامراء في شعر محمد حسين علي الصغير

Representations of the City of Samarra in the Poetry of Muhammad Hussein Ali Al-Sagheer

رسول بلاوي*
جامعة شهيد تشمران أهواز، أهواز، (إيران)
r.balavi@scu.ac.ir

زينب شريفي أسدي
جامعة پيام نور، طهران، (إيران)
zeinab.sh.a@pnu.ac.ir

معلومات المقال

تاريخ الإرسال:
2026/01/01
تاريخ القبول:
2026/04/19

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الشعر العربي المعاصر
- ✓ سامراء
- ✓ الإمامين العسكريين
- ✓ محمد حسين الصغير

الملخص

يتناول هذا البحث تمثّلات مدينة سامراء في شعر محمد حسين علي الصغير، بوصفها فضاءً جمالياً وروحياً يجسّد الصراع بين المقدّس والمدنّس. يركّز البحث على كيفيّة تحويل الشاعر للمدينة إلى رموز حيّة، حيث لا تظهر سامراء كموقع جغرافي فحسب، بل ككيان معنوي يحمل طبقات متعددة من الدلالات. تبرز سامراء المقدسة من خلال ضريح الإمامين العسكريين (عليهما السلام)، الذي يصوّره الشاعر كمصدر للنور والهداية وملاذٍ من جور السلاطين، ومقياسٍ للقيم الروحية. في المقابل، يقابلها تمثّل سامراء المدنّسة المتمثلة في دور الخلائف وقصور بني العباس، التي ترمز إلى الظلم والغرور والزوال المحتوم. من خلال المنهج الوصفي - التحليلي، يكشف البحث عن التضاد لبناء رؤية فلسفية تنتصر فيها القيم الإلهية والدينية على قوى الطغيان والفساد، مؤكّداً على خلود المقدّس رغم محاولات التدمير، كما في تفجير المرقدين، الذي يظهره الشاعر كفعل يائس لا يقوى على محو الرسالة الخالدة.

Abstract

This research examines the representations of the city of Samarra in the poetry of Muhammad Hussein Ali Al-Sagheer, as an aesthetic and spiritual space embodying the conflict between the sacred and the profane. The study focuses on how the poet transforms the city into living symbols, where

Article info

Received 01/01/2026
Accepted 19/04/2026

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

Samarra appears not merely as a geographical location but as a semantic entity carrying multiple layers of signification. Sacred Samarra emerges through the shrine of the Two Askari Imams (peace be upon them), which the poet portrays as a source of light, guidance, and refuge from the tyranny of rulers, as well as a benchmark for spiritual values. In contrast, profane Samarra is represented by the palaces of the Abbasids ("Diyar al-Khulafa"), symbolizing oppression, arrogance, and inevitable demise. Through a descriptive-analytical approach, the research reveals how the poet employs this dichotomy to construct a philosophical vision in which divine and religious values triumph over forces of tyranny and corruption, emphasizing the immortality of the sacred despite attempts at destruction—such as the bombing of the shrines, which the poet depicts as a desperate act incapable of erasing the eternal message.

Keywords:
- ✓ Contemporary Arabic Poetry
- ✓ Samarra
- ✓ The Two Askari Imams
- ✓ Muhammad Hussein Al-Sagheer

المقدّمة

تتشكّل مدينة سامراء في الشعر العربي الحديث فضاءً مكانياً استثنائياً، لا يقف عند كونه مجرد موقع جغرافي، بل يتحوّل إلى نسيج رمزي حي يجسّد صراعاً وجودياً بين قيم الثبات والزوال، المقدّس والدنيوي. وتأتي سامراء في طليعة المدن التي تمتلك هذه القدرة على استثارة المخيلة الشعرية، بفضل ثرائها التاريخي والروحي الفريد؛ فهي من ناحية مدينة القصور العباسية الباذخة التي أصبحت أطلالاً صامتة تشهد على زوال الجبروت، وهي من ناحية أخرى مدينة المراقد المقدسة التي تضم رفات الإمامين العسكريين (عليهما السلام)، مما أضفى عليها هالة من القدسية والخلود.

في هذا الإطار، يبرز شعر محمد حسين علي الصغير كمثالٍ بارزٍ لاستثمار هذه الثنائية العميقة، حيث يحوّل سامراء إلى عالم شعري مكتمل، تعكس من خلاله رؤية فنية وفلسفية متجذرة. فمن خلال توظيف تقنيات التضاد والرموز الحية، يبني الشاعر خطاباً شعرياً ينتقد فيه ظلم السلطة ويؤكد على انتصار القيم الإلهية. ضريح الإمامين يظهر في شعره كمركزٍ نورانيٍ يشع بالهداية والبركة، ويقاوم محاولات التدمير بالصمود والعلو، بينما تتحول قصور بني العباس إلى شواهد أخلاقية على زوال كل بناء يقوم على الظلم والفساد.

يهدف هذا البحث إلى تتبع تمثّلات مدينة سامراء في شعر محمد حسين علي الصغير، والكشف عن الآليات الفنية التي استخدمها لبناء هذا العالم الرمزي، وكيف استطاع أن يحوّل المعالم المادية إلى خطاب شعري يخاطب الوعي الجمعي، مؤكداً أن قيمة المكان لا تكمن في حجاره، بل في قداسة ما يمثله من قيمٍ وإيمانٍ يتجاوزان الزمن والمادة. محمد حسين علي الصغير شاعر عراقي معاصر، وُلِد في النجف الأشرف عام 1940م وحصل على الدكتوراه في الآداب من جامعة بغداد كما عمل أستاذاً في جامعة الكوفة.

أسئلة البحث:

في هذه الدراسة نهدف إلى الإجابة عن الأسئلة التالية:

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

– كيف تمثّلت مدينة سامراء في شعر محمد حسين علي الصغير؟

– كيف جسّد الشاعر ثنائية الصراع بين المقدس (المراقد الدينية) والمدنّس (قصور بني العباس)؟

– ما الآليات والأدوات الفنية التي استخدمها الشاعر في بناء تمثّلات مدينة سامراء؟

خلفيّة البحث

من الدرسات التي عالجت مدينة سامراء والمعالم الحضارية والدينية فيها أدبيّاً وتاريخيّاً تجدر الإشارة إلى ما يلي:

– كتاب معنون بـ: "سامراء في أدب القرن الثالث الهجري" للباحث يونس أحمد السامرائي (1968م)، وقد تم نشره في مطبعة الإرشاد ببغداد/ العراق. وقد تقصّى الباحث صورة هذه المدينة في أدب القرن الثالث الهجري.

– كتاب آخر تحت عنوان "مآثر الكبراء في تاريخ سامراء"، للشيخ ذبيح الله المحلاتي (1426هـ)، منشور في مطبعة شريعت بقم/ إيران. وكما يظهر من عنوان الكتاب يهتم بالجانب التاريخي لهذه المدينة دون الاهتمام بالجانب الأدبي.

– ودراسة تحمل عنوان "مرقد الإمامين العسكريين ودلالاته الدينية والسياحية: دراسة أنثروبولوجية في مدينة سامراء القديمة" للباحثة هنوف نامق فيزي (2025م)، منشورة في مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، المجلد 33، العد 1. والدراسة ارتكزت على الطابع الديني لهذه المدينة ولم تهمل دراسة المعالم السياحية للمدينة.

– ودراسة أخرى تحمل عنوان "سور مدينة سامراء القديم: دراسة تاريخية آثارية"، للباحثة رجوان فيص الميالي (2020م)، منشور في مجلة تراث سامراء، السنة 1، العدد 2. وهي دراسة تاريخية أثرية لهذه المدينة.

لمحة تاريخية عن مدينة سامراء

مدينة سامراء الأثرية مدينة تاريخية عريقة كانت مقرّاً وعاصمةً للدولة العباسية في زمن المعتصم بالله. تقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة. تحدها من الشمال مدينة تكريت، ومن الجنوب بغداد، ومن الغرب الرمادي، ومن الشمال الغربي الموصل، ومن الجنوب الغربي ديالى (مطر وآخرون، 2005م: 263). كان اسمها سابقا (سر من رأي) أي إن المرء يُسر حينما يراها، وقد ذكر لها المؤرخون أسماء أخرى لهذه المدينة حسب تعاقب الأجيال على السكن فيها منها: سامرا، سامراء، سر من رأي، سامره، سامیرا، سراء، شامیرا، سر مارتا، سومروم (فيزي، 2025م: 56). ذكرها الحموي فقال عنها: «إنها مدينة بنيت لسام بن نوح ونسبت إليه بالفارسية سام راه، وكانت مدينة سامراء مدينة عتيقة من مدن الفرس تحمل إليها الأتاوة» (الحموي، 2015م:173 و174). وقد تبيّن من التحريات الأثرية أن خرائب سامراء وبعض القرى والمستوطنات الأثرية يرجع إلى أدوار ما قبل التاريخ من الألف السادس قبل الميلاد (باقر وسفر، 1966: 11).

قصة مدينة سامراء من أغرب وأمتع القصص في التاريخ، فهي قطعة أرض قفراء على ضفةٍ مرتفعة من نهر دجلة، لا عمارة فيها ولا أنيس بها، إلا ديراً للنصارى ... تتحوّل – في مثل لمح البصر– إلى مدينة كبيرة لتكون عاصمة لدولة من أعظم الدول التي عرفها التاريخ، في دور من ألمع أدوار سؤددها ... تنمو هذه المدينة الجديدة وتزدهر بسرعة هائلة، لم يرَ التاريخ

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

مثلها في جميع القرون السابقة، ولم يذكر ما يماثلها بعض المماثلة إلا في القرن الأخير في بعض الأقسام من العالم الجديد. (الحصري، 2022م: 133). وقد ذكر اليعقوبي «بأنها كانت في متقدم الأيام صحراء من أرض كورة الطيرهان ولا عمارة بها» (اليعقوبي، 2002م: 35).

إن الأراضي التي انتخبها المعتصم لتشييد المدينة الجديدة كانت منبسطة وواسعة، ولم يكن فيها من المباني القديمة ما يُعرقل خطط المباني الجديدة، ولا من التلول والوديان ما يُحدّد ساحات البناء، فكان باستطاعة الخليفة أن يجعل القطائع كبيرة وفسيحة، والطرق عريضة وطويلة ... وسيكون باستطاعة أخلافه أن يُوالُوا عمله هذا ويُمدّدوا الشوارع ويُوسّعوا المدينة (الحصري، 2022م: 136). وكان ابتداء العمارة بسامرا في سنة إحدى وعشرين ومائتين وقد بنيت في أسرع مدّة (شيخو، 1991م، ج 1: 49). يقول صاحب كتاب تجارب الأمم «في هذه السنة خرج المعتصم إلى القاطول وابتدأ ببناء سر من رأى وذلك في ذي القعدة منها» (ابن مسكوية، 1915: 478).

وقد خربت مدينة سامراء سنة 279هـ وانتقلت عنها الخلافة وأقفلت راجعة إلى بغداد ولم يبق في سامراء إلا موضع الإمامين العسكريين الإمام علي الهادي والإمام الحسن عليهما السلام، وسرداب بيت الأئمة عليهم السلام، ومحلة أخرى بعيدة يقال لها كرخ سامراء (الميالي، 2022م: 181). بعد أن ترك الخلفاء مدينة سامراء، تدهورت أحوالها العمرانية وقل سكانها (المنذري، 1984: 2259).

كانت ومازالت هذه المدينة مقصداً للزوّار والسواح لما تحتويه من معالم أثرية وتاريخية ودينية أبرزها مرقد الإمامين العسكريين عليهما السامع، والجامع الكبير ومأذنته المعروفة بالملوية. والمأذنة الملوية تُعتبَر من أبرز المعالم العباسية المتبقيّة حتى يومنا هذا، بناها مع جامع سامراء الفخم المتوكل على الله وهي على شكل مخروطي (نجيب، ج1، 1999م: 227).

والواقع أن سامراء خطت خطوات واسعة وحثيثة في مسارب الحضارة حتى غدت أملاً يراود أذهان الكثيرين، ومبتغى لذوي المطامح والمناصب لكثرة الأعمال فيها بسبب البناء والتشييد، والتنظيم والتوسيع حتى شدّ إليها الناس رحالَهم، كما احتضنت العلماء والأباء والشعراء والفنانين في ذلك العصر (السامرائي، 1968م: 74 و75).

استدعى مدينة سامراء في الشعر العربي كرمز حي يعبر عن تعاقب الحضارات والأجيال، حيث تقف القصور العباسية المهيبة شاهداً صامتاً على عظمة زائلة تثير في النفس عبرةً عن اندثار القوة البشرية مهما عظمت. وفي الوقت ذاته، يمنح وجود ضريح الإمامين العسكريين (عليهما السلام) في تربتها بُعداً روحياً وقدسياً، يجعل منها مقصداً للقلوب ورمزاً للصمود والإيمان، مما يخلق ثنائية فريدة بين مجد دنيوي بائد وروحانية دينية خالدة، تظل مصدر إلهام للشعراء عبر العصور.

استدعاء مدينة سامراء

تُعتبَر مدينة سامراء من أهمّ المدن العراقية، وقد بلغت شهرتها عندما أصبحت عاصمة الدولة العباسية أيام المعتصم بالله سنة 221هـ، وكذلك عندما تبركت أرضها بدفن جثامين الإمامين العسكريين الإمام علي الهادي والإمام الحسن عليهما السلام

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

فأصبحت من المدن المقدسة فضلاً عن خلفيتها التاريخية العريقة. فالجانب الديني والتاريخي للمدينة أدّى إلى الإعمار وضرورة حفظ الأمان للمدينة (الميالي، 2022م: 179).

يستدعي الشاعر محمد حسين علي الصغير مدينة سامراء في شعره ليجعل منها فضاءً مقدساً يجسّد ملحمة الصراع بين الإيمان والظلم، متخذاً من القباب والمراقد المقدسة للإمامين الهادي والعسكري (عليهما السلام) رمزاً للثبات والشمول الروحي الذي يتحدّى محاولات التدمير والطمس، حيث تتحول المدينة في شعره إلى منارة للهداية ومنبع للأمل، يؤكد أن هذه المقدسات، رغم الاعتداءات، ستبقى شامخة كالشواهد، تعلن انتصار الحق في النهاية وانهيار مؤامرات أعدائه، معبراً عن حنين شخصي عميق واشتياق لقاء هذه الأرض المقدسة التي تحتضن تاريخاً من العطاء الإلهي والمقاومة. يقول الشاعر مخاطباً الإمام علي الهادي عليه السلام:

ويا نَزيلاً بسامراءَ بي دَنَفٌ إلى لقاك .. وبي شَوقٌ إلى السّمَر (الصغير، 2009م: 260)

في هذا البيت، يصوغ الشاعر علاقة وجدانية عميقة مع سامراء، مُحمّلاً إياها بكل معاني الشوق والتقديس بسبب وجود مرقد الإمام علي الهادي (ع). فنداء "يا نزيلاً بسامراء" ليس مجرد خطاب، بل هو صرخة قلب متوجع دنف ناتج عن البُعد وشدّة الشوق إلى الحبيب. وهذا الوجع ليس جسدياً بل هو داء الشوق الروحي للقاء الإمام. وتكمن براعة الصورة في الجمع المزدوج للشوق: الشوق إلى "اللقاء" الروحي مع الإمام، وهو شوق عمودي نحو السماء، والشوق إلى "السَّمَر" في سامراء، وهو شوق أفقي أرضي. "السَّمَر" هنا يحمل دلالة ثقافية عميقة في التراث العربي، فهو يعني السهر للحديث والأنس، مما يحوّل المدينة من مكان جغرافي إلى فضاء للقاء الروحي والأنس المعنوي. وفي الأبيات التالية يقول الشاعر:

وإن أتيتَ لسامُراءَ مُحتضناً للعسكريينِ في آهاتِ مَغبُونِ

فالثم ثَرَى الأرضِ من بعدِ القبابِ وقُل تَبًّت يَدا كل مأفونٍ ومَلعونِ

إن دَمّروا مَرقدَ (الهادي) وقُبَّتَهُ فسوفَ تعلُو شُمُوخاً كالشّواهينِ

لا بُدَّ أن يَستردَّ الحقُّ جَولتَهُ وأن يَبُوءَ بخزيٍ كيدُ (رابينِ) (المصدر نفسه: 268)

في هذه الأبيات، يرتقي الشاعر بصورة سامراء من مكانٍ يُشتاق لزيارته إلى ساحة مقدسة للصراع العقائدي والوجودي، حيث يحوّل فعل الزيارة من مجرد شعيرة دينية إلى عمل مقاوم ومناضل. وأرض سامراء لم تعد تراباً عادياً، بل أصبحت رموزاً للإيمان يتوجب تقبيلها لتتحول إلى طقس للتحدي ولعن الأعداء. ثم تتسع الدائرة لتصبح سامراء نموذجاً مصغراً للأمة، فمحاولات التدمير لا تقضي على قدسيتها، بل تزيدها شموخاً كالشواهين، مؤكدة على قوة الحق الإلهي الذي لا يُقهَر مقابل كيد الباطل الزائل (كيد رابين رئيس وزراء إسرائيل الأسبق)، مما يخلق صورة شعرية قائمة على الثنائية الضدية بين الخراب المادي والعلو المعنوي، والظلم الآني والعدالة الحتمية. وفي قصيدة يمدح الشاعر فيها الإمام الحسن العسكري عليه السلام:

زَهَت بك سامراءُ بَدراً فأزهرت رُباها، وفاضَت بالسَّناءِ المرابعُ

وطاولتِ الأرضُ السَّماءُ بقبَّةٍ تَضُمُّ على القَبرينِ منها الأضالِعُ

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

أطلَّت على الصَّحراءِ في بركاتِها فماجت سُهُولٌ، واستطالت مقالعُ
بها يَهتدي الحَيرانُ من شُبُهاتِهِ ويأمَنُ ذو خوفٍ، ويلجأُ فارغُ (المصدر نفسه: 274)

في هذا النص، يصوغ الشاعر صورة سامراء كحيز مقدس يتعالى على كونه مجرد مكان، ليتحول إلى مركز إشعاع روحي ونوراني بوجود الإمام العسكري. فالمدينة تزهو به بدراً لتتحول إلى فضاء مشع يفيض بالجمال والخير على ربوعها ومرابعها. وتتجلى عظمة المكان عبر القبة الشامخة التي تطاول السماء، كناية عن اتصال الأرض بالسماء. ثم تفيض بركات الحضور المقدس لتعم الصحراء فتحييها، وتهز السهول حتى لتضطرب، وترتفع المعالم حتى لتتعالى. وهكذا تتخطى سامراء دورها المادي لتصبح ملاذاً روحياً وموئلاً للهداية، يجد فيها الحائر طريقاً، والخائف أمناً، والفراغ ملجأً ومعنى. فالمدينة في النص هي ليست حجارة وتراباً، بل هي بركة متجددة ورمز للعطاء الإلهي الذي يمنح الأمل ويبدد الظلمات. وفي الأبيات التالية يقول الشاعر:

ما قُبّةُ العَلَمِ (الهادي) وروضَتُهُ إلّا مَقَرُّ الأعالي والأساطين
وما الرَّواقُ الذي صُفَّت أرائكهُ إلّا دليلُ المطاعيمِ المطاعينِ
زَهَت بمغناهُ سامُرَّاءُ والتجأت له الأقاليمُ من جَورِ السّلاطينِ
قد كانَ فيها بحيثُ الحُكمُ ذُو عَبَثٍ مأوى المحبّينَ من نَهشِ الثّعابينِ
طالت إليه يَدُ الإرهابِ غادرةً وفَجّرَت حِقدَها في غُصنِ زَيتونِ
تلك القِبابُ أعَزَّ اللهُ جانبَها رَمزُ السّلامِ.. ومِقياسُ الموازينِ (المصدر نفسه: 268)

في هذه الأبيات، يرفع الشاعر من شأن سامراء لتصبح حصناً روحياً ومنارةً للعدل، متخذاً من قبة الإمام الهادي (ع) ورواقه مركزاً لهذه الرسالة، فهي مقر الأعالي والأساطين ودليل المطاعين مما يضفي عليها هالة من القداسة والقيادة الروحية. ثم تتسع الدائرة لتصبح سامراء بكاملها ملاذاً للأقاليم التي تلوذ بها هرباً من جور السلاطين، مما يحولها من مجرد مدينة إلى رمز للتخلّص من الظلم. ويقيم الشاعر تقابلاً شديداً بين ماضيها كمأوى للمحبين في زمن كان الحكم ذا عبث، وبين حاضرها الذي تتعرض له بيد الإرهاب الغادرة التي تنتهك حرمة السلام المعبّر عنها بغصن الزيتون. وتنتهي الصورة بتتويج هذه القباب كرمز السلام ومقياس الموازين الثابتة للحق، مؤكدة أن شموخها المعنوي سيبقى أقوى من أي عدوان. وفي النص التالي يقول الشاعر:

لله (سامراء) قد ضَمّت منَ النَّبعِ النّطافا
جَمَعَت إلى الدين القو يم بها الكرامةَ والعَفافا
وزَهَت أشعَّتُها بنو رِ اللهِ يزدَهرُ ارتصافا
بالعسكريين الإما مينِ الهُمامينِ اتّصافا
القائمين بأمرِ دي نِ اللهِ وحياً وانكشافا (المصدر نفسه: 278)

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

في هذه النص الشعري، يتجلى استدعاء سامراء كمنبع للطهارة والنقاء ومركز تجتمع فيه مقومات الدين القويم، حيث تتحول المدينة إلى حاضنة للقيم السامية كالكرامة والعفاف، فتصبح إشعاعاً روحياً أكثر منها مكاناً مادياً. وتزدهر سامراء بنور الله الذي يشرق منها، لترتقي من كونها مكاناً إلى مصافّ النور الإلهي المنتشر الذي يهدي ويلهم. ويتكامل هذا البُعد الروحي من خلال اتّصافها بالعسكريين الإمامين الهمامين، اللذين يضفيان عليها قدسيتهما كقائمين بأمر الدين، ممّا يجعلها مركزاً للوحي والانكشاف الإلهي، ورمزاً للهداية والحقيقة المطلقة التي تتجاوز حدود الزمان والمكان.

ضريح الإمامين في سامراء

بعد استشهاد الإمام أبي الحسن دُفن في صحن داره عام 289هـ. نُصِب شبّاك في جدار الدار ليطلع المارّة من الشارع على تلك القبول الموجودة في الداخل وبقيت على هذا الحال تقريباً إحدى وأربعين سنة دون إصلاح. بعد ذلك قام ناصر الدولة الحمداني الحسن بن أبي الهيجاء سنة 332هـ بتشييد الدار من جديد وبنى عليها قبة صغيرة وأحاط المدينة بسور ليأمن ساكنوها (الحسني، 1958م: 111). أمّا العمارة التالية للمرقد فكانت سنة 337هـ على يد معز الدولة البويهي بتغيير طراز البناء بتأسيس الدعائم (المحلاتي، 1426هـ: 324) وتعمير القبة وسرداب الدار، ووضع على القبر صندوقاً خشبيّاً، بعد ذلك استمرّت عملية الإصلاح والتجديد للمرقد بشكل مستمر، ففي عهد الملك فيصل الأول توسّعت الطرق حول الصحن، وقد انشأت محلات للوضوء ودورات مياه لتقديم التسهيلات للزوّار كما تنوّرت الروضة الشريفة ونشرت فيها المصابيح لأوّل مرّة عندما وصلت إليها الكهرباء (فيزي، 2025م: 57).

يُجسّد الشاعر محمد حسين علي الصغير في عدد من قصائده صورة ضريح الإمامين العسكريين عليهما السلام بتفاصيل بارعة تجعله حياً في مخيلة المتلقي، حيث يتحول هذا المعلَم المقدس من كونه مجرد قبة أو قبر أو روضة مادية إلى كونٍ رمزيٍّ مفعمٍ بالدلالات الروحية والتاريخية. ففي أبياته، لا يقتصر تصوير الضريح على كونه مكاناً للزيارة فحسب، بل يرفعه إلى مصافِّ الحصون الروحية التي تواجه الظلم، والمنارات التي تهدي الحائرين، والملاذات التي تحمي المؤمنين من آفات الزمن. وتكشف هذه الصور المتعددة من خلال القبة الشامخة، والروضة الزاهرة، والضريح المقدس، عن رؤية الشاعر العميقة لهذا الموقع بوصفه مركزاً لإشعاع الإيمان ومَقراً للأسرار الإلهية، حيث يتجلى فيه التوازن بين الجلال والجمال، وبين القوة والسلام، وبين الألم والأمل. فكل عنصر من عناصر الضريح — من القبة إلى الرواق إلى القبر — يصبح في شعره لبنة في بناء عالم مثالي يقاوم المحو والنسيان، ويظل شاهداً على انتصار المقدس على المدنس، والأبدي على العابر. جاء في قصيدة تحمل عنوان (في رحاب الإمام عليّ الهادي عليه السلام):

شممتُ تُربَك فانهالت عليَّ رؤىً ... وطِفتُ في القبرِ في حشدٍ منَ الصُّوَرِ
كأنّ ذاك الضِراح النّضرَ حاضرةٌ ... منَ الجنان، وواحاتٌ منَ الزَّهَرِ
هَبّت نسائمُهُ فارتاحَ ذو شَجَنٍ ... وفاحَ مجمَرُهُ .. فاهتَزَّ ذو ضَجَرِ
حجّت إليه قُلوبُ النّاس واختلَفَت ... ما بينَ مُعتصِمٍ فيهِ ومُعتَبِرِ

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

زُوروا أبا الحسن الهادي فقبَّتُهُ بها يُجابُ دُعاءُ الخائفِ الحَذِرِ
واستَقبِلُوا الخيرَ والألطافَ في جَدَثٍ قد ضمَّ بدرينِ في الأوضاحِ والغُرَرِ
ضَمَّ (الإمامين) كنزاً في نفائسه وأيُّ عِلقٍ نفيسٍ غَيرُ مُدَّخَرِ (الصغير، 2009م: 260 و261)

في هذه الأبيات، ينسج الشاعر لوحةً حسيةً وروحيةً غنيةً لضريح الإمامين العسكريين، حيث يتحول المكان من كتلة حجرية إلى فضاء حي مفعم بالحركة والمعاني. فالشاعر لا يزور قبراً بل يدخل عالماً من الرؤى والصور التي تنهال عليه، وكأن الضريح حاضرة من الجنان تحيط بها واحات من الزهر، ممّا يخلق تقابلاً بين ثقل الأرض وخفّة الجنّة. وتتحول العناصر الطبيعية إلى رموز نابضة بالحياة؛ فالنسائم تبعث الراحة في النفس الحزينة، والمجمر يفوح بطيب الأرواح فيهدئ المضطرب، مؤكدا على دور الضريح كملاذٍ نفسيٍّ يشفى به المتألمون. ثم يتسع المشهد ليكشف عن دور الضريح كقبلة للقلوب، حيث يلتقي المعتصم الباحث عن ملجأ والمعتمر الطالب للبركة، في وحدة روحية تجمعهم تحت قبة يستجاب عندها دعاء الخائفين. ويبلغ التمجيد ذروته عندما يصف القبر الذي يضم بدرين – إشارة إلى الإمامين – ليس كقبرٍ للموتى، بل كخزّان للكنوز النفيسة واللطائف الإلهية، ممّا يجعله أعلى قيمة من أي كنز مدخر، مؤكداً على أن قيمة الضريح لا تكمن في ذاته المادي، بل في ما يمثله من نورٍ وإيمانٍ يتجدد. وفي قصيدة أخرى تحمل عنوان (التفجير الإجرامي) يقول الشاعر:

للعسكريينِ تاريخٌ ومَلحمَةٌ وللإمامةِ آلافُ البراهينِ
لوحدةِ الدينِ والدُّنيا ضَريحُهُما وللعَقيدةِ غَرّاءُ المضامين (المصدر نفسه: 265)

في هذين البيتين، أصبح ضريح الإمامين العسكريين رمزاً خالداً يجسّد ملحمة تاريخية وعقائدية عظيمة. فالتاريخ والملحمة يشيران إلى البُعد النضالي والتراث الغني الذي يمثله الإمامان، بينما تؤكد آلاف البراهين على دور الإمامة كحقيقة راسخة. ويصبح الضريح هنا نقطة التقاء لوحدة الدين والدنيا، جامعاً بين العالمين المادي والروحي في بوتقة واحدة؛ كما يتحول إلى منبع لعقيدة غنية بالمضامين السامية، ممّا يجعله ليس مجرد مبنى، بل مركز إشعاع فكري وروحي يوحد المؤمنين ويجسّد خلاصة مبادئ الإسلام الأصيلة. وفي ما يلي يقول الشاعر:

ويَمّمتُ شَطرَ العَسكريينِ فأزهَرت ضَرائحُ فيها للمهابةِ أسرارُ
وقُبَّةُ مَجدٍ.. قد أطَلَّت على الرُّبى وشَعَّت لها فوقَ الجَزيرةِ أنوار (المصدر نفسه: 297)

تبدأ الصورة بحركة التوجّه (يممت شطر) التي تعبر عن اشتياق روحي وحنين، ليتفاجأ المتلقي بأن الضرائح لا تستقبله بصمت، بل تزهر حيةً تنبض بالأسرار والمهابة، ممّا يوحي بأن المكان ليس للموتى بل للأسرار الإلهية الخفية. ثم تتعالى الصورة إلى القبة التي تتحول من شكل هندسي إلى كيان حي يطل على الربى بشموخ، وكأنها حارس مقدس يرعى الأراضي من حولها. ولا تقتصر أنوارها على المكان المباشر، بل تشع لتغطي الجزيرة كلها، مؤكدةً على دور الضريح كمركز إشعاع روحي يهدي ويلهم أبعد من حدوده الجغرافية، ممّا يجعله منارةً للإيمان والعبادة.

سلامٌ على الحسن العسكري وقبرٍ تَضَمَّنَهُ أنوَرِ
سلامٌ على جَدَثٍ ضَمَّهُ تَضوّعَ بالمسك والعَنبَرِ

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

تَطُوفُ القلوبُ فمن خُشَّعٍ على جانبيهِ .. ومن سُمَّرِ (المصدر نفسه: 281)

في البيت الأوّل، يصوغ الشاعر تحيته لضريح الإمام العسكري عليه السلام عبر صور حسية ترفع القبر من حيزه المادي إلى عالم النور والطهارة، وكلمة "أنوَر" تجعل القبر مصدراً للإشراق الروحي المتجدّد. والبيت الثاني يختزل تحولاً جوهرياً في المفهوم؛ فالجَدَث الذي هو رمز الموت والانتهاء، يصبح رمزاً للحياةِ والنقاءِ عبرَ التضوّع بالمسك والعنبر. وكلمة "تضوّع" لا تعبر عن مجرد انبعاث الرائحة، بل عن فَيْضٍ وجوديٍّ يشي بانتشار البركة والروحانية في كل الاتجاهات، وكأن القبر هنا لا يحوي جسداً، بل ينبوعاً للقداسة يتسامى على المادة والزمن. وفي البيت الثالث ينتقل المشهد إلى حركة لقلوب التي تطوف حول الضريح، إذ يعبّر عن حالة الالتفاف الروحي لا الجسدي فقط، حيث يلتقي الخُشَّع المنكسرة قلوبهم بالخوف والرهبة مع السُّمَّر الثابتة بإيمانها، ممّا يخلق لوحة بشرية متناغمة تعكس تجاذب المكان لمشاعر المريدين بدرجاتها المختلفة، مؤكداً على دور الضريح كمحطة للسلام الداخلي والاتزان الروحي.

المعالم التاريخية في سامراء

تُعتبَر سامراء إرثاً تاريخياً وحضارياً فريداً، يجسّد تحفة معمارية وأروقة روحانية تروي حكاية أمّة. وفي مقدمة معالمها، يبرز ضريح الإمامين العسكريين عليهما السلام، ليس كمجرّد قبة وقبر، بل كمَعلَمٍ يجسّد الصمود والمقدّس، حيث أصبح مركزاً للإشعاع الديني ورمزاً للوحدة العقائدية، تتهافت عليه القلوب كما تتهافت الأفئدة إلى منارات الهدى. أما الآثار العباسية، وعلى رأسها قصر الجوسق الخاقاني وقصور المتوكل ومئذنة الملوية الشهيرة، فتمثل ذروة العمارة الإسلامية وبذخ الحضارة العباسية في أوج مجدها. لكن هذه الصروح المهيبة تحمل اليوم دلالة مزدوجة؛ فمن ناحية هي شاهد على العظمة والتفوّق الفني والعلمي، ومن ناحية أخرى أصبحت أيقونات للاندثار والعبور، تذكيراً صامتاً بأنّ زمن القوة لا يدوم، وأنّ البناء المعماري كيفما عَظُمَ يبقى عرضة للزوال إذا لم يسنده بناءٌ قائم على القيم والأصالة. فسامراء بهذا تجسّد بمواقعها لوحة كاملة للوجود الإنساني؛ تَعاقُب الأمم، صعود الحضارات وسقوطها، وخلود المقدّس وسط تحوّلات الزمن. يقول الشاعر محمد حسين علي الصغير:

دُورُ العبادةِ لله العظيمِ.. ودع (دُورَ الخلائفِ) للبيضِ الخواتينِ

شتّانَ ما بينَ أرضٍ قدَّسَت صَنَماً وبَينَ أرضٍ ثَرَاها للقرابينِ (المصدر نفسه: 266)

دُور الخلائف مصطلح تاريخي، عبّر به الباحثون عن قصور خلفاء بني العباس في سامراء، وهي خراب في خراب كما عبّر عنه الشاعر في هامش القصيدة. يقدّم الشاعر في هذين البيتين تقابلاً صارخاً بين رمزين متعارضين في سامراء؛ فمن جهة تُظهر دور الخلائف (قصور الخلفاء العباسيين) التي بُنيت للبذخ والترف، ممّا يجسدها الشاعر كرمز للزوال والفساد الدنيوي. وفي المقابل، يقابلها (دور العبادة لله) التي ترمز للخلود والقداسة. ثم يعمّق هذا التقابل بالتوازي بين "أرض قدست صنماً" (إشارة إلى عبادة القوة والسلطة الزائلة) و"أرض ثراها للقرابين" (إشارة إلى الأرض المقدسة التي تُقدم فيها القرابين لله). من

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

خلال هذا التباين، يجسّد الشاعر دلالة عميقة على أن قصور السلطة، رغم عظمتها المادية، مصيرها الخراب والذل، بينما تبقى أماكن العبادة خالدة لأنها تقوم على الإيمان والتقديس الحقيقي. وفي قصيدة أخرى يقول الشاعر:

لقد صَوَّحَت دُورُ الخلائفِ واتَّحت معالِمُها الفَيحاءُ فهيَ بلاقِعُ
فما (الجعفريُّ) اليومَ إلّا رُسُومُهُ ولا (الجوسَقُ) الجبّارُ إلّا فواقِعُ
قُصُورٌ بناها الظُّلمُ.. فانهَدَّ رُكنُها وقُوِّضَت الآساسَ منها الفظائعُ
منازلُ قامَ البُومُ في خرباتِها فذا ناعقَ فيها.. وذلك قابعُ
بناها (بنو العباسِ) ذكراً لملكِهِم فلا ذكرُهُم باقٍ.. ولا الملك راجِعُ
فما عاشَ (مُعتَزٌّ)، ولا (مُتَوكلٌ) ولا عادَ شَيئاً (مُستضيءٌ) و(طائعُ)
وقُم واسئلَن (خان الصّعاليك) هل ذَوَى على جَنبِهِ غُصنٌ منَ اللهِ فارغُ
أضاءَ بفَضلِ (العَسكريين) بَهُوُهُ وإن حقَّرت أكنافُهُ والمواضِعُ
أرادُوا بهِ إذلالهُم واضطهادَهُم وهَيهاتَ ما ذلَّت أُنُوفٌ فَوارِعُ (المصدر نفسه: 275)

يصوّر الشاعر في هذه الأبيات المعالم الأثرية في سامراء، مُبرزاً تناقضاً صارخاً بين ديمومة المقدّس وزوال الدنيوي. الجعفري قصر بناهُ المتوكل في سامراء، وسُمّي باسمه، والجوسق قصر بناه المقتدر بالله في سامراء، في وسطه بركة مغلّفة بالرصاص سعتها ثلاثون ذراعاً في عشرين. يقول الشاعر لدور الخلائف وقصور العباسيين مثل الجوسق والجعفري لم يبق منها إلا رسوم وأطلال، وهي صورة تُجسّد انتصار العدالة الإلهية على الظلم، حيث قُوِّضت الآساس بسبب الفظائع التي ارتُكبت فيها. يُقابل هذا الخراب مشهد خان الصعاليك المتواضع، الذي يتحول إلى رمز للعزة والنور بفضل بركة الإمامين العسكريين (أضاء بفضل العسكريين بهوه)، رغم حقارة موقعه. خان الصعاليك، أحد خربات سامراء، أنزلوا به الإمامين العسكريين إذلالاً لهما. الأبيات، تُظهر هذا التباين أن القصور المشيدة بالظلم مصيرها الزوال، بينما الأماكن المتواضعة المرتبطة بالقداسة تكتسب خلوداً ونوراً. هذه الأبيات تُقدّم سامراء كمشهد لصراع أبدي بين القوة الزائلة والحقيقة الخالدة، حيث ينتصر الروحي على المادي، وتتحول أطلال القصور إلى درسٍ عن عدالة التاريخ وزوال الجبابرة. وفي البيتين التاليين يقول الشاعر:

و(خان الصعاليك) ضمّ الإمامَ ووالدَهُ.. في ثرىً مُقفِرِ
وإن كانَ في روضَةِ الخالدين مِن غائبينَ.. ومن حُضَّرِ (المصدر نفسه: 280 و281)

جاء في هامش ديوان الشاعر تعليقاً على هذين البيتين: «لما وصل الإمام الهادي وولده الإمام العسكري سامراء، أمر المتوكل العباسي أن ينزلا في خان الصعاليك. وقد روى الكليني بسنده عن صالح بن سعيد، قال: دخلتُ على أبي الحسن عليه السلام يوم وروده، فقلتُ: جعلت فداك في كل الأمور أرادوا إطفاء نورك، والتقصير بك حتّى أنزلوك هذا الخانع الأشنع (خان الصعاليك)، فقال: هاهنا أنت يا ابن سعيد، ثم أومأ بيده فإذا أنا بروضاتٍ وأنهارٍ جاريات، وجناتٍ فيها خيرات عطرات، وولدان كأنّهم اللؤلؤ المكنون، فحار بصري، وكثر تعجبي، فقال الإمام عليه السلام، حيثُ كنّا فهذا لنا يا ابن سعيد .. لسنا في خان الصعاليك» (المصدر نفسه: 281). وفي قصيدة أخرى يقول الشاعر:

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

ويمّمتُ شَطرَ العَسكريينِ فأزهَرت ضَرائحُ فيها للمهابةِ أسرارُ
وقُبَّةُ مجدٍ.. قد أطَلَّت على الرُّبى وشَعَّت لها فوقَ الجَزيرةِ أنوار
وفكرتُ في خان الصعاليك إذ ثَوَى الإمامانِ فيه.. والمهازلُ أدوارُ
فأيقَنتُ أنَّ اللهَ يَجزي بمِثلِ ما يُقدِّمُ في الدُّنيا.. وللبعثِ أخبارُ
تَسامى كيانُ (العسكريينِ) واعتلى لهُ شَرَفٌ من دُونِهِ: التاجُ والغارُ
غَريبَينِ كانا في الدّيارِ.. فأصبحا منَ العِزِّ: أن تُحنى رُؤوسٌ وأبصارُ(المصدر نفسه: 297)

يُمثِّل خان الصعاليك في الأبيات نقيضاً صارخاً لفخامة قصور الظالمين، حيث يحوّله الشاعر من مكانٍ متواضعٍ إلى رمزٍ للعدالة الإلهية. فبينما زالت قصور الجبابرة، أصبح هذا الخان شاهداً على انتصار المقدَّس على المدنَّس، وضعف المكان المادي لا يُقلل من قيمته بل يزيده شرَفاً لارتباطه بالإمامين. وهكذا يتحول من ملجأ للفقراء إلى أيقونة للعِزّ الروحي. وفي قصيدة تحمل عنوان (جولة في آثار سامراء) نظّمها الشاعر عام 1997م لدى جولته في خرائب دور الخلائف: المعتصم، والمتوكل وسواهما من بني العباس:

وقفتُ على دُورِ الخلائفِ وقفَةً بها عَبرةٌ للمُتَّقينَ وتذكارُ
وكم عِظةٍ في الغابرينَ منَ الأُلى أشادوا حياةً للفناء بها صارُوا
قُصُورٌ بناها الظُّلمُ.. فانهارَ رُكنُها وكلُّ بناءٍ شادَهُ الظلمُ مُنهارُ
وغالى (بَنُو العباس) في مُستقرّها فبادت.. وهل يبقى معَ الدَّهرِ دَيَّارُ (المصدر نفسه: 296)

في هذه الأبيات، يحوّل الشاعر أطلال قصور العباسيين في سامراء إلى لوحة درامية تكشف عن قصة الزوال والعبرة. فدور الخلائف لم تعد مجرد آثار حجرية، بل أصبحت وقفة تأملية تقدم عبرة للمتقين وتذكاراً يشي بحتمية نهاية الظلم. الصورة المركزية هنا هي "قصور بناها الظلم" لتنهار أركانها، ممّا يؤكد أن أي بناء قائم على الجور مصيره الانهيار، حتى لو بلغت فخامتها ذروتها كما في عهد بني العباس الذين غالوا في مستقرها. هكذا تتحول المعالم الأثرية من دليل قوة إلى شاهد على العدالة الإلهية التي تقوض أسس الظالمين، ممّا يجعل سامراء متحفاً أخلاقياً يخلد درساً واحداً: (البناء على الظلم لا يدوم).

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

الخاتمة

– استطاع الشاعر محمد حسين علي الصغير أن يقدّم سامراء كنسيج متكامل من الرموز الحية، حيث أصبحت المدينة مختبراً لصياغة رؤية فلسفية تنتقد الظلم وتؤمن بخلود القيم المقدسة. عبر توظيف أدوات فنية متميزة جمعت بين الحسي والرمزي، والتقليدي والحديث، نجح في تحويل المعالم المادية إلى خطاب شعري يخاطب الوعي الجمعي. من خلال التحليل المتعمق لتمثّلات مدينة سامراء في شعر محمد حسين علي الصغير، تبرز ثلاثة محاور رئيسية تكشف عن رؤية الشاعر الفنية والفلسفية:

– تمكّن الشاعر من تحويل المدينة من كيان جغرافي إلى فضاء حي ينبض بالدلالات الرمزية، حيث جسّدت سامراء مسرحاً للصراع بين المقدس والمدنس. فمن ناحية، ظهرت كمدينة النور المرتبطة بضريح الإمامين العسكريين عليهما، وكمصدر للهداية والبركة والخلود، ومن ناحية أخرى، تجسّدت كمدينة الظلم عبر قصور بني العباس التي أصبحت أطلالاً تذكيراً بزوال الجبروت. هذه الثنائية أنتجت خطاباً شعرياً يعلي من قيمة الروحي على المادي، ويؤكد أن انتصار القيم الإلهية حتمي رغم محاولات التدمير.

– تحوّل ضريح الإمامين في نص الشاعر من معلم مادي إلى كيان نوراني متجاوز للمادة. فمن خلال توظيف الرموز الحسية والمجازات الدينية، نجح في صنع صورة شعرية ترفع الضريح إلى مصدر للقوة المعنوية والمقاومة؛ كما حوّل الاعتداءات الإرهابية عليه من فعل تدمير إلى فرصة للتأكيد على صموده وعلوه، ممّا جعله أيقونة للصمود أمام محاولات الطمس.

– قدّم الشاعر قصور بني العباس مثل دور الخلائف ليس كمجرد آثار تاريخية، بل كشواهد أخلاقية على سقوط كل بناء قائم على الظلم. من خلال تقنيات التضاد (بين خان الصعاليك المتواضع وقصور المتوكل الفاخرة)، وبالاستعانة من الصور الدرامية، كشف عن سنة إلهية ثابتة: زوال الظلم وبقاء القيم. كما حوّل هذه المعالم إلى متحف أخلاقي يستلهم منه المتقون العبرة، مؤكداً أن العبرة ليست في عظمة البناء، بل في عدالة ما يمثله.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

المصادر والمراجع

- ابن مسكوية، أحمد بن محمد (1915)، تجارب الأمم، ج 6، مصر: مطبعة شركة التمدن الصناعية.
- باقر، طه، فؤاد سفر (1966)، المرشد إلى مواطن الآثار والحضارة، الرحلة من الثانية إلى السادسة، بغداد: مديرية الفنون والثقافة الشعبية.
- الحسني، عبدالرزاق (1958م)، تاريخ العراق قديماً وحديثاً، بيروت: مطبعة دار الكتب.
- الحصري، ساطع (2022م)، آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع، مؤسسة هنداوي.
- الحموي، الشيخ شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي البغدادي (2015م)، معجم البلدان، ج 3، بيروت: دار صادر.
- السامرائي، يونس أحمد (1968م)، سامراء في أدب القرن الثالث الهجري، بغداد: مطبعة الإرشاد.
- الصغير، محمد حسين علي (2009م)، ديوان أهل البيت عليهم السلام، بيروت: مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع، ط1.
- شيخو، لويس (1991م)، تاريخ الآداب العربيّة، ج 1، بيروت: دار المشرق.
- فيزي، هنوف نامق (2025م)، مرقد الإمامين العسكريين ودلالاته الدينية والسياحية: دراسة أنثروبولوجية في مدينة سامراء القديمة، مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، المجلد 33، العد 1، صص 98- 114.
- المحلاتي، الشيخ ذبيح الله (1426هـ)، مآثر الكبراء في تاريخ سامراء، ج 1، قم: مطبعة شريعت.
- مطر، سليم، علي ثويني (2005م)، نصرت مروان، موسوعة المدائن العراقية، بغداد: منشورات مركز دراسات الدمة العراقية.
- المنذري، زكي الدين أبو محمد عبد العظيم (1984)، التكملة في وفيات النقلة، ج 3، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- الميالي، رجوان فيص (2020م)، سور مدينة سامراء القديم: دراسة تاريخية آثارية، مجلة تراث سامراء، السنة 1، العدد 2، صص 47 – 62.
- نجيب، عبدالله سالم (1999م)، تاريخ المساجد الشهيرة، ج 1، منارات.
- اليعقوبي، أحمد بن اسحاق (2002م)، البلدان، بيروت: دار الكتب العلمية.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)